أنصار اللّه وجوهر الصراع في المنطقة: ثنائية المقاومة والتحرر

وجدي الصراري
كاتب وباحث

أولاً: جوهر الصراع والمشاريع الاستعمارية في العالم العربي

من حيث خصوصية الزمان والمكان، يشكّل المشروع الاستعماري الإمبريالي خطراً وجودياً على المجتمعات العربية والإسلامية، أما من حيث عمومية الانتشار وخطورة مذهبه الرأسمالي فهو مشروع يمثل خطراً على العالم كله، حيث تعاني من سياساته المالية والاقتصادية الاستعمارية دول العالم كلها من شرق آسيا وحتى دول أمريكا اللاتينية غرباً.

بالنسبة لعالمنا العربي، لا تتمحور خطورة المشروع الاستعماري على مراكز الثروة النفطية والطبيعية فحسب، وذلك على الرغم من كون السيطرة على تلك الثروات بشكل كامل تعد الهدف الرئيسي الذي يسعى إليه المشروع الاستعماري في العصر الراهن، ولكن هناك مخاطر التقسيم الجغرافي المبني على أسس طائفية وعرقية ومذهبية ...إلخ. حيث إن ذلك التقسيم والعمل عليه يساهم من ناحية في صرف النظر عن مطامع الاستعمار الحقيقية، وتخلق ظروف التقسيم - من الناحية الأخرى - مجتمعات هشّة وغير متماسكة وقابلة للتجريف في أتون حروب داخلية، ليتم للمشروع الاستعماري استثمار ذلك كله في صرف القوى السياسية والمجتمعية في هذه المجتمعات عن القضايا الوطنية الملحة المتمثلة بحماية السيادة الوطنية والتحرر الشامل عن المنظومة الاستعمارية.

١ - نظرية قوس التوتر ومشروع الشرق الأوسط الجديد:

طرح زبيغنيو بريجنسكي (مستشار الأمن القومي في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر، وأحد أذكى منظري الإمبريالية الأمريكية المعاصرين) نظرية أطلق عليها مسمى "قوس التوتر"، وهي نظرية تتظافر مقولاتها مع مشروع إمبريالي

صهيوني آخر هو (الشرق الأوسط الكبير)، وقد أخذ طرحه تأويلات كثيرة كان آخرها مقولة (الشرق الأوسط الكبير الجديد) التي تبنتها إدارة بوش (الابن) في أواسط العقد الأول من القرن الحالي. ومهما كانت تأويلات ذلك المشروع؛ إلا أنه يستند اقتصادياً على مضمون استغلال اليد العاملة العربية الرخيصة والاعتماد على المياه النابعة من الأراضي التركية واستثمار الأموال العربية.

- جوهر نظرية قوس التوتر:

ينطلق جوهر هذه النظرية من ضرورة تفتيت الدول الواقعة ما بين أفغانستان شرقاً إلى باب المندب جنوباً ثم إلى مضيق جبل الطارق غرباً، على اعتبار أن هذه الدول تمتلك تنوعاً جغرافياً فريداً، كما أنها مليئة بالطوائف والأعراق والأديان المختلفة، وغنية بالثروات الطبيعية. ومن هذه المعطيات وضعت النظرية ضرورة الاستمرار في تفجير الحروب وتغذية الصراعات في هذه البلدان لإعادة بنائها من جديد كبلدان أحادية القوميات والأديان والطوائف.

كما أن إشاعة هذا النوع من الحروب الإثنية في تلك البلدان سيجعل من إمكانية استعادة هذه البلدان لتوازنها واستقرارها أمراً شبه مستحيل لعشرات السنين، عندها ستتمكن أمريكا من السيطرة التامة على ثرواتها بالاعتماد على ذراعها الأقوى في المنطقة وهو الكيان الصهيوني، كما أن تفتيت دول المنطقة إلى دويلات صغيرة متناحرة سيحد من فرصة حدوث أي تطور قد يجري فيها، ما سيحمي إسرائيل ويعزز وجودها كقوة كبرى بين تلك الدويلات المتصارعة.

لقد شكل مشروع الشرق الأوسط الجديد المرحلة الثانية في الاستراتيجية الأمريكية التي تضمنتها نظرية بريجنسكي (قوس التوتر)، ولذلك عملت الإمبريالية الأمريكية على دعم العدوان الإسرائيلي على لبنان عام ١٩٨٢م، وكذلك ضربة قانا الأولى، واتفاقات أوسلو التي تمخض عنها كيان منقوص للفلسطينيين. لكن سرعان ما تلقى مشروع الشرق الأوسط الجديد ضربات متلاحقة إثر انسحاب إسرائيل من قطاع غزة ومن الجنوب اللبناني، واشتعال الانتفاضة الفلسطينية الثانية؛ فجاءت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م لتدشن المرحلة الثالثة لمشروع الشرق الأوسط الجديد، إذ تم احتلال أفغانستان من قبل القوات الأمريكية، ثم تبعتها العراق، وفي الوقت

نفسه دفعت أمريكا بالقوى الانفصالية في السودان - بقوة - لميدان العمل السياسي، ومن ثم جاء تشكيل ما يسمى تحالف دول الاعتدال العربي في إطار المشروع الاستعماري ذاته الذي يعمل على إبعاد القوى العربية عن الجبهة الفعلية في مواجهة الصهاينة إلى صراعات أُخرى. وفي إطار إنجاز المشروع ذاته دفعت أمريكا بإسرائيل لشن حرب (تموز ٢٠٠٦م) ضد حزب الله، وحرب ٢٠٠٨م/٢٠٠٩م ضد حركة حماس في قطاع غزة، لكن إسرائيل فشلت فشلاً ذريعاً في هذه الحروب، فاستمر تعرض مشروع الشرق الأوسط الجديد لضربات قوية من محور المقاومة.

في اليمن، أشعلت أمريكا عن طريق نظام صالح حرب ٩٤م على الجنوب اليمني، وست حروب ضد أنصار الله في صعدة شمال اليمن، وكان المخطط بعد ذلك أن يسيطر أنصار الله على "الجغرافيا الزيدية"، فيما ينادي الحراك الجنوبي بالانفصال. ويأتي مشروع الستة أقاليم اليوم متناسباً مع المخطط الاستراتيجي ذاته للإمبريالية الأميركية.

مع انطلاقة الربيع العربي جاءت الانتفاضة التونسية وبعدها المصرية لتوجه طلقة جديدة إلى ذلك المشروع الاستعماري ونظرية قوس التوتر، وما تزال الإمبريالية الأمريكية تحاول حرف هذه الثورات وتوجيهها في خدمة مشروعها ذاك، إلا أن الانتصارات الأخيرة لمحور المقاومة وهزيمة داعش، قد سددت ضربة قوية أخرى لمشروع الشرق الأوسط الجديد ونظرية قوس التوتر الاستعمارية. لكن على الرغم من تلك الضربات التي أصابت تلك النظرية الإمبريالية، إلا أنها ما تزال بمثابة الركيزة الأساسية والاستراتيجية للإمبريالية، فلا تزال ميادين أخرى مفتوحة لتنفيذ أهداف تلك النظرية كالورقة الأمازيغية في المغرب العربي وملف كردستان العراق.

٢ - انتصار الأحادية القطبية وتوسع نفوذ الاستعمار:

أدى تفكك المعسكر الشرقي في نهاية القرن العشرين لتسيد الولايات المتحدة الأمريكية لمشهد النظام العالمي وتشكل حالة من الأحادية القطبية. كما خلقت أمريكا إرهاباً ذا طابعٍ دولي، وذلك بتدخلها في كل مكان في العالم، واتهامها من تشاء بالإرهاب حين ترغب بفتح أسواق جديدة وحين يسيل لعابها على موارد طبيعية ومواد خام تريد انتزاعها بأرخص الأثمان.

حالة أحادية القطبية التي تخلّقت في الفضاء الدولي العام بتفكك الاتحاد السوفيتي سهلت التحركات الاستعمارية الأمريكية، حيث ازدادت القدرة الأمريكية على التدخل في الشؤون الداخلية للدول المختلفة، وتوسعت رقعة انتشار القواعد العسكرية الأمريكية أيضاً. وفي الأخير ساهمت الإدارة الأمريكية على انتشار قوى الإرهاب والتطرف التي تمثل ذريعةً تُمَكن من التدخلات العسكرية في الدول المختلفة من جهة، وتعمل من جهة أخرى على خلخلة التوازنات الاجتماعية داخل تلك الدول، وعلى سبيل المثال، الإرهاب والسلاح النووي الذي مثل ذريعة الولايات المتحدة الأمريكية للتدخل العسكري في العراق عام ٢٠٠٣م، قاد العراق لوضع سياسي واجتماعي مختل، وعلى ضوء ذلك الواقع تنامت النزعات الطائفية والمذهبية استغلالاً للتنوع الديمغرافي الذي يحتويه بلد كبير وتاريخي كالعراق.

٣ - الدور الوظيفي الاستعماري لممالك الخليج:

يظهر وبشكل جلي على طول تاريخ العالم العربي المعاصر أن ممالك الخليج وعلى رأسها المملكة السعودية قد لعبت دوراً وظيفياً استراتيجياً في المنطقة العربية لحساب مصالح الإمبريالية العالمية، وذلك من خلال عملها كأداة للمحافظة على المصالح البترولية للإمبريالية العالمية، ومعول هدم لمشاريع العالمين العربي والإسلامي الوطنية والتحررية، سواء باستخدام أدوات كالحركات السلفية الجهادية أو بالتنظيمات الإرهابية كالقاعدة وتنظيم داعش مؤخراً، أو من خلال المال والنفوذ السياسي، وبالعمل كذلك على التدخل لصياغة أنظمة حكم عربية مشوهة وفاقدة للمشروع الوطني وتتحرك عبر أجهزة الأمن والمخابرات ومؤسسات الدولة المخترقة من جهة، والموظفة في سبيل القمع والتبعية من جهة أخرى. وبصفةٍ عامة، تعد السعودية بمثابة النموذج المثالي في أداء كل تلك الأدوار الوظيفية لصالح الإمبريالية العالمية، كما تقوم دول خليجية أخرى كقطر والإمارات والبحرين بأدوار وظيفية أخرى شبيهة بتلك الأدوار السعودية خدمةً للاستعمار الإمبريالي الغربي الأمريكي والبريطاني وكذلك الاحتلال الصهيوني. وتمثل دول الخليج - إجمالاً - مراكز اقتصادية وقواعد عسكرية ومراكز استقطاب ثقافية وسياسية تخدم المشروع الاستعماري ذاته.

٤ - الصراع في سورية وأهميتها الاستراتيجية لمعسكر الشرق:

سورية بوابة الشرق، وللشرق أيضاً معركته مع قوى الاستعمار. ويرتبط الشرق كمعسكر مناهض للإمبريالية بالعالم العربي ارتباطاً وثيقاً منذ انطلاق الثورة البلشفية التي مثلت أهم الحلفاء الاستراتيجيين والداعمين لحركات التحرر الوطنية القومية والاشتراكية في العالم كله. وعلى الرغم من تفكك المعسكر الشرقي في نهاية ثمانينات القرن العشرين، إلا أن الخطر الذي يمثله المشروع الإمبريالي لا يزال محدقاً بدول المعسكر الشرقي (سابقاً)، والمعركة في سورية اليوم هي معركة عالمية مصغرة يحضر محور المقاومة كأحد أطرافها. فالموقع الجيوسياسي المميز لسورية يفرض على الروس التحالف والدعم الكبير للدولة السورية في مواجهة أدوات الإرهاب الإمبريالية والجماعات المسلحة المدعومة بالسلاح الأمريكي والمال الخليجي والدعم اللوجيستي التركي، لأن سورية تمثل آخر معقل يمكن أن يمتد عبره النفوذ الروسي إلى الشرق.

٥ - الأطماع الاستعمارية في اليمن وعلاقتها بالعدوان:

تتمتع اليمن بموقع جغرافي واستراتيجي متميز من النواحي الاقتصادية والجيوسياسية بإطلالها على بحرين من أهم البحار التي تمثل خطوطاً تجارية هامة في التاريخ القديم والمعاصر (بحر العرب، والبحر الأحمر)، ويفصل بينهما مضيق باب المندب الذي تتحكم به جزيرة ميون اليمنية. وتمر عبر مضيق باب المندب أغلب البضائع والصادرات التجارية من الشرق والغرب. كما تمتلك اليمن أيضاً ثروات طبيعية كبيرة (نفطية وغازية وثروة سمكية، ...إلخ). وكل تلك المعطيات تجعل من هذا البلد محلاً لأطماع دول الاستعمار، وفيما يخص العدوان السعودي الإماراتي المدعوم سياسياً ولوجستياً من الأمريكيين والبريطانيين، يظهر جلياً أن هذه الحرب تهدف وكأحد أهم أسبابها للسيطرة على مضيق باب المندب والموانئ الرئيسية التي إن نشطت بشكل حقيقي على يد قوى وطنية وتحررية ستؤثر على التجارة والاستثمار في الموانئ الخليجية. وحين نوسع مدى البصر باتجاه ما يجري من صراع إقليمي ودولي في المنطقة برمتها، سندرك أن السيطرة على اليمن واحتلاله هي محاولة ممالك الخليج للنفاذ من مركزية مضيق هرمز بالنسبة لها، فبدون مضيق هرمز

يغدو اليمن منفذ- تلك الممالك- الوحيد إلى بحر العرب ومضيق باب المندب (الطريق الأقرب للسوق الأمريكية والأوروبية المستهلكة للنفط الخليجي).

سياسياً، ترى أدوات الاستعمار والإمبريالية في الخليج أن قيام سلطة ثورية وتحررية في اليمن يشكل خطراً عليها، وهذا ليس بالضرورة بسبب ما يقال عما يمكن أن تمثله هذه السلطة من خطر عسكري على الحدود الجغرافية، لكن الخطورة الحقيقية هي في أثر التحولات السياسية والاجتماعية في اليمن على واقع تلك الممالك خصوصاً المملكة السعودية التي تتشارك مع اليمن الكثير من الخصائص الاجتماعية والثقافية؛ فنجاح الثورة في اليمن قد يكون الشرارة التي تهيئ لتحولات سياسية واجتماعية في السعودية لا تستطيع التعامل معها بطرق أخرى غير الحرب. فاليمن في عيون الاستعمار يعد عنصر خطر سياسي، وذلك من حيث إمكانيته تحفيز التغيرات الاجتماعية والسياسية في المنطقة برمتها، كما أن الموقع الجيوسياسي المميز حين يقع في يد سلطة ثورية وتحررية يصير خطراً على التحركات العسكرية للإمبريالية العالمية. وبعيون اقتصادية، يصير اليمن مطمعاً للاستعمار بسبب ثروته الطبيعية وموقعه الاستراتيجي، حيث تصبح السيطرة عليه ملاذاً لممالك الخليج تتخلص به من شبح إغلاق إيران لمضيق هرمز.

ثانياً: التحرر والمقاومة وفلسطين (عناوين متعددة لقضية واحدة)

نشأت حركات التحرر الوطنية العربية في ظل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية المتشابهة التي تعيشها بلدان العالم العربي، لكنها لم تظهر لأسباب ذاتية عربية فقط وفق قوانين تطور المجتمعات وعبر تأثيرات المفاهيم الثقافية كالتراث والدين واللغة في حركة تطور هذه المجتمعات؛ إذ إن الاستعمار - بشكليه القديم والجديد - كان أهم اللاعبين الذين أثروا وساهموا في تأييد الظروف والاجتماعية والسياسية التي هيئت لظهور حركات التحرر الوطنية وقيام الثورات في العالم العربي، فالإمبريالية بطبيعتها الظالمة والاستنزافية وبهجومها على أرواح الناس ولقمة عيشهم لا بد أن تولّد التمرد كرد فعل طبيعي يُعبر عن مقت الناس ورفضهم للاستغلال والاستعباد.

كما لعبت القضية الفلسطينية أيضاً دوراً مهما في تكوين هذه الحركات، وعملت القضية الفلسطينية - بكونها مظلومية طويلة لم تتمكن الشعوب العربية والإسلامية من حلها – على إحداث تأصيل إيديولوجي في الحركات المقاومة للكفاح من أجل القضية الفلسطينية دون الاكتفاء بتحرير أوطانها القُطرية. فعلى الرغم من كون الحاجة لظهور هذه الحركات كانت حاجة ذاتية فرضتها الظروف الموضوعية التي يعيشها كل بلد على حدة، إلا أن ما حدث كان في حقيقته دليلاً على وحدة الإرادة والقضية الانسانية ووحدة المصير المشترك بين بلدان وشعوب العالم العربي، ودليلاً أيضاً على وحدة الخطر الوجودي الذي تمثله إسرائيل ومن خلفها المشروع الإمبريالي الاستعماري على البلدان والشعوب في العالم العربي ككل.

١ - التبعية التي فرضها الاستعمار الجديد على الدول والأنظمة في العالم العربي

بعد أن اشتعلت الثورات العربية في خمسينيات وستينيات القرن الماضي ضد الوجود الاستعماري البريطاني والفرنسي، وأدت لسقوط نفوذ تلك الإمبراطوريات وسقوط الشكل القديم للاستعمار بكونه استعماراً عسكرياً مباشراً؛ عادت القوى الاستعمارية لتمارس نفوذها في المنطقة العربية من جديد، وذلك في شكل استعماري جديد يتمثل في فرض التبعية الكاملة لتلك القوى في الجوانب السياسية والاقتصادية وغيرها من الجوانب الحيوية في حياة الشعوب والمجتمعات العربية المستهدفة، ومن خلال تأثيرات موضوعية تخلقها الشركات الإمبريالية عابرة القارات، وباستخدام وسائل متعددة تتضمن السياسات الاقتصادية الاحتكارية والقروض البنكية والمساعدات الدولية وغيرها.

(أ) التبعية الاقتصادية:

نعني بالتبعية الاقتصادية كشكل من أشكال الاستعمار الجديد، أن تكون الموارد الأساسية في الاقتصاد المحلي للبلد المستقل (شكلياً) تحت سيطرة الرأس مال الاحتكاري للشركات الإمبريالية عابرة القارات. وبالنسبة للمنطقة العربية، عادة ما تتركز تلك السيطرة على الموارد النفطية الموجودة فيها بوفرة، وخصوصاً منطقة الخليج العربي والشام والعراق وأجزاء من شمال القارة الأفريقية. والسيطرة على تلك الموارد يضمن الاستغلال المباشر لسكان البلد المستهدف من الاستعمار،

وكذا الاستيلاء المنظم على أغلب الفائض الذي تنتجه قوة العمل المحلية، إضافة إلى جزء من الفائض الذي يحققه الإنتاج السلعي الصغير ونسبة معينة من دخل مجمل السكان.

ذلك الشكل من الاستعمار بقي في كثير من المناطق رغم تحررها من أشكال الاستعمار القديم، ومع مرور الزمن طرأت تغيرات على تركيبة رأس المال الاستعماري السابق في تلك المناطق؛ إذ ازداد نصيب رأسمال بلدان رأسمالية أخرى كـ (أمريكا وألمانيا) على حساب بلدان كانت فيما سبق مُستَعمِرة لتلك المناطق بالشكل العسكري (فرنسا وبريطانيا)، وهذا كان يجري عبر تدخلات استخباراتية، وأيضاً عبر دمج الرساميل الإمبريالية ذات المناشئ المختلفة، لتُظهر هذه التبعية في الأخير طابعاً عالمياً، وتعكس - أكثر فأكثر - الطبيعة الجماعية للنيوكولونيالية (الاستعمار الجديد).

(ب) التبعية التجارية:

التبعية التجارية تعني اقتصار العلاقات التجارية للمناطق التي كانت مستعمرة قديماً على قلة من البلدان الرأسمالية المتقدمة التي تبرم معها أغلب الصفقات التجارية. فالعلاقة الاقتصادية والتبعية التجارية تجعل اقتصاد البلد المستقل (شكلياً) حساساً وأعزل في حالة ابتلاء البلد الرأسمالي الشريك بالركود والأزمات؛ إذ بوسع الأخير إزاحة أعباء الأزمات الاقتصادية عن كاهله ووضعها في قلب البلد التابع له. ويمكننا في الصدد ذاته الاستدلال بانعكاسات أزمة ركود الاقتصاد الأمريكي على اقتصادات دول أمريكا اللاتينية في عامي (١٩٥٧م و١٩٥٨م)، كما يمكن استذكار الأزمة الاقتصادية العالمية عام ٢٠٠٨م، حيث تحملت جزءاً من تبعات تلك الأزمة دول الخليج العربي وعلى رأسها المملكة السعودية. على الجانب الآخر، يتم حل مشاكل الكساد الاقتصادي الراهن في دول رأسمالية عالمية من خلال تجارة السلاح المربحة بشكل غير عادي مع الدول التابعة، ومنها على سبيل المثال صفقة السلاح الأمريكية مع المملكة السعودية في مايو ٢٠١٧م.

(ج) التبعية المالية:

استطاع الرأسمال الاستعماري بما يملكه من حرية للحركة بسبب فرضه تبعية اقتصادية كاملة على البلدان المستقلة (شكلياً) في العالم العربي، إنشاء بنوك تابعة له، والتحكم في النظام المصرفي من خلاله التحكم في حركة النقد ونظام الائتمان. وبهذا استطاع أن يدعم أو يعيق أي قطاع اقتصادي في تلك البلدان بواسطة سياساته الائتمانية، فيقوم بتعزيز الصناعات التي تنسجم مع مصالحه واحتياجاته ويخنق الأُخريات التي تتعارض مع تلك المصالح والاحتياجات، وأن يؤثر كذلك على التجارة والتصدير، ويعمل على إبقاء الرأسمال الوطني في حيز سيطرته حتى ذلك الذي يعمل في حقل الائتمان.

من جهة أخرى، بوسع الرأسمال الاستعماري أن يخلّق التضخم أو يقلص كمية النقد وفق إرادته، وذلك من خلال تنظيم إصدار النقود، وما يتبع ذلك من تأثيرات اقتصادية كخفض الأجور الحقيقية، وإقرار الجرعات السعرية، ورفع الدعم عن المواد الغذائية والضرورية، كما يستطيع أيضاً من خلال ذلك التأثير على وضع الميزانية الكلية للبلد وتحديد ميزانيته المتعلقة بالتجارة والمدفوعات.

إن تلك الأشكال من التبعية في الاقتصاد والتجارة والنقد التي تفرضها الكولونيالية بشكلها الجديد، تسيطر على مجرى سير الحياة بشكل عام داخل البلدان الخاضعة لنفوذها، وتمتص دماء شعوبها وعرقهم، وتعرقل تطور إنتاجهم واكتسابهم للخبرة العملية من عملية الإنتاج، وتقلل فرص العمل الحقيقية لصالح الأعمال الخدمية الآنية القابلة للزوال بسرعة، وهي أيضاً تمتص ثرواتهم فتزيد من المعاناة بشكل مستمر، ما يخلق مجتمعاً هائجاً قابلاً للاستثارة الثورية، فالناس حين لا تملك شيئاً يصبح بإمكانها أن تضحي بكل شيء في سبيل أن تمتلك كل شيء.

٢ - موقع القضية الفلسطينية من حركة التحرر العربية وأثره في صياغة ملامحها:

تعتبر القضية الفلسطينية القضية المركزية في المنطقة العربية ككل، فهي محور ومرتكز مشروع الاستعمار، حيث تقوم الدول الاستعمارية بدعم الوجود والاستيطان في فلسطين على حساب وجود الشعب الفلسطيني نفسه، فوجود الدولة الصهيونية

في الأراضي العربية يدعم الكثير من أسس السيطرة الاستعمارية خصوصاً فيما يتعلق بمناطق وجود النفط والثروات. وهذا التمركز في منطقة حساسة جداً لا بد أن يثير الكثير من القضايا الجدلية كالصراع بين الشرق والغرب، والعلاقة بين الأديان السماوية الثلاثة (اليهودية، المسيحية، الإسلام)، وهي لا بد أن تثير الكثير من أسس الصراع الماضوي لتجسده في الحاضر، وهذا ما يمس المشاعر الدينية والعرقية عند معظم الناس في العالم العربي، فالضغوط التي تمارسها اللوبيات الصهيونية على الدول العظمى، ومحاولة تأصيل وجود الاحتلال وفرضه على الواقع، تمثل عاملاً أساسياً في صياغة وعي حركات التحرر بأهمية استئصال هذه الخلية السرطانية التي لا تؤثر على حاضر ومستقبل الشعب الفلسطيني فحسب، بل وأيضاً على حاضر ومستقبل كل المجتمعات في المنطقة العربية. فبدون وجود هذا الكيان لن يكون هناك أهمية لصياغة أنظمة حكم شمولية وغير ديمقراطية في العالم العربي تعمل على إجهاض مشاريع النهضة والتحرر في العالم العربي.

ثالثاً: أنصار الله يحملون لواء المقاومة في اليمن

على إثر النكسة التي مُني بها اليسار في اليمن، وبقاء اليمن مكشوفة أمام التهديدات الاستعمارية، تبلورت حركة أنصار الله في إطار خطاب ديني استنهض المفاهيم الثورية في الفكر الإسلامي عموماً والزيدي بصفة خاصة.

١ - الإطار الفكري لأنصار الله في مواجهتهم للاستعمار والصهيونية:

تتجلى القضية الفلسطينية كقضية مركزية في إطار النشاط الإعلامي والسياسي لأنصار الله، وقد خصص السيد حسين بدر الدين الحوثي ملزمة كاملة بعنوان (يوم القدس العالمي) تتضمن ما يمكن اعتباره التأصيل النظري الرئيسي لأنصار الله بخصوص القضية الفلسطينية، حيث تناولت الملزمة قضايا عديدة كوجهة نظر السيد حسين في أسباب تأخر النصر والمعالجات التي طرحها لحل المشكلة التاريخية في العالم العربي، إذ يرى أن الإسلام بقيمه الأخلاقية والروحية لا يحارب دولة إسرائيل، لأنه لو كان لما صمدت الدولة الصهيونية في مواجهته، وهو يرجع المسبب للعامل الداخلي . كما يرى السيد حسين الحوثي في النموذج الإيراني للثورة نموذجاً

متميزاً يمكن الاستفادة منه في صناعة أمة تستطيع مواجهة التحديات الخطيرة التي يمثلها الكيان الصهيوني والمشروع الاستعماري في المنطقة.

على المستوى الوطني اليمني، كان السيد حسين بدر الدين الحوثي مستشعراً بقوة خطورة المشروع الإمبريالي والاستعماري، فكان له ملزمة بعنوان (خطر دخول أمريكا اليمن)، حيث تناول فيها خطر التدخلات الاستعمارية بشكل كبير فيها وخطورة تبريرها كون التبرير للجريمة قد يكون في أحوال كثيرة جزءاً منها وهذا خطير فيقول: "لا يجوز لك أن تنقل أي تبرير أبداً تسمعه ولو من رئيس الجمهورية، يبرر وجود الأمريكيين أو يبرر القيام بعمل هو خدمة للأمريكيين من أي جهة كان، هذه أول قضية يجب أن نحذر منها" ، فالتدخلات الاستعمارية لا يمكن أبداً أن تكون لصالح البلد والشعب، هي بالضرورة تدخلات تخدم المصالح الاستعمارية والاقتصاد الرأسمالي المستنزف لحياة ودماء الشعوب، فيقول: "هم لا يريدون أن يصل الناس لمستوى أن يصنعوا لأنفسهم، يريدون منا أن نظل سوقاً استهلاكية نستهلك سلعهم منتجاتهم، ليضعوا مصنعاً هنا في هذا البلد العربي أو في ذاك المصنع لنفس الشركات والمنتج الرئيسي لها ويكون مقر الشركة في بريطانيا أو أي مكان من دول الغرب أو في أمريكا" .

٢ - أنصار الله يتصدرون جبهة مقاومة العدوان الاستعماري على اليمن:

انطلقت حركة أنصار الله من عمق البيئة الريفية في أقصى شمال الجمهورية اليمنية، من محافظة صعدة. وهي حركة فلاحية في تركيبتها حيث انتصر لمظلوميتها وقضاياها الكثير من أبناء القبائل اليمنية والمناطق الريفية، وبحكم كون هذه الحركة في تركيبتها تتكون من الكثير من أبناء المناطق الريفية والفلاحين، وهذا جعل ارتباطهم بالأرض عميقاً ما خلق عنصراً مهماً في قضية مواجهة العدوان والهجمة الاستعمارية، حيث يرون أن الاستعمار والعدوان إنما يستهدف الأرض من حيث هي تمثل الحياة لهم ولكل اليمنيين. ولا يقتصر هذا الفهم لأهمية الأرض على سكان الأرياف فحسب، بل ينطبق على سكان المدن والمناطق الحضرية أيضاً، لكن ارتباط الفلاحين وسكان الأرياف بها أعمق بسبب اعتمادهم عليها وعملهم فيها بشكل أكبر. وكان تصدر أنصار الله كحركة مقاومة ثورية

للعدوان الاستعماري نتيجة تشكيل هذا العدوان خطراً وجودياً على الأرض والإنسان وعلى الأصوات الحرة المقاومة.

تقوم حركة أنصار الله اليوم بالعمل الذي أُنيط منذ عدة عقود بحركة التحرر الوطنية اليمنية ولم تكمله، فالعدوان السعودي الراهن على اليمن لا يعد حدثاً طارئاً نتيجة تقلبات سياسية معينة في العمق اليمني أو الإقليمي والدولي، إنما هو عدوان متواصل استمر مواكباً المتغيرات الاجتماعية والسياسية في اليمن والتحوّل معها من شكل إلى آخر، فمجزرة (تنومة) التي أوقعتها المملكة السعودية في الحجاج اليمنيين عام ١٩٢٣م، كانت إحدى صور ذلك العدوان التاريخي على اليمن، ومثلها حرب الثورة اليمنية مع الملكيين المسنودين بالمملكة السعودية منذ ١٩٦٢م حتى ١٩٦٧م.

لقد تغلغلت السعودية خلال التاريخ المعاصر في شتى الشؤون الداخلية لليمن، ومارست نفوذها العدواني بشكل كبير سواء عبر الحرب أو عبر النفوذ والمال السياسي، حيث استمرت في تحريك أوراقها الرجعية والمتخلفة الموجودة ضمن الخارطة اليمنية ضد قوى التحرر الوطني، وذلك إما عبر الاتفاق السياسي كما حدث في عام ١٩٦٧م والمبادرة الخليجية عام ٢٠١٢م، أو عبر الورقة العسكرية كما فعلت في ١٩٦٢م وفي عدوانها على اليمن منذ مارس ٢٠١٥م. وقد كان لأنصار الله على الدوام موقفاً ثابتاً من التدخلات في القرار السياسي اليمني، سواء قبل التدخل العسكري السعودي في حروب صعدة، وخاصة الحرب السادسة، أو بعده. ويمكن الاستشهاد بالموقف الذي اتخذته حركة أنصار الله من التدخل الخليجي بقيادة السعودية في الثورة اليمنية (فبراير ٢٠١١م)، وكذا الموقف الرافض للتدخل الخليجي وللانتخابات الشكلية التي أفضت إليها تلك التدخلات (فبراير ٢٠١٢م). وتمثل كل تلك المواقف الوطنية امتداداً لمشروع التحرر الوطني الرافض للوصاية وفرض القرار السياسي من قوى الخارج.

لقد جاءت تلك المواقف منسجمةً مع فكر أنصار الله، وذلك لأنهم - ببساطة - يستشعرون البعد الاجتماعي في القضايا المطروحة على الساحة الوطنية سياسياً، وهذا الاستشعار يتبدى في رفضهم نقل الإشكال الاجتماعي إلى حيز سياسي يفرغه

من محتواه الحقيقي. وقد أثبتت الوقائع والأحداث أن ثورة فبراير الشعبية التي حوّلها التدخل الاستعماري إلى أزمة سياسية عبر آلية (المبادرة الخليجية)، لم تتمكن القوى السياسية عبرها من حل الإشكالات الاجتماعية التي أنتجتها في السياق التاريخ السابق لها؛ إذ إنها عملت - ببساطة - على دمج القوى الرجعية في السلطة والمعارضة في إطار هيكل السلطة السياسية، وأقصت القوى الوطنية (أنصار الله والحراك الجنوبي)، وحاولت - أيضاً - اختزال المشاكل الاجتماعية ومعطيات الثورة الشعبية في إطار أزمة سياسية، وهو الأمر الذي لم ينجح مطلقاً، بل انعكس توسعاً اجتماعيّاً للقوى الوطنية (الأنصار والحراك).

مع توسع القوى الوطنية اجتماعياً، يظهر جلياً مدى سقوط أدوات الاستعمار في التدخلات السياسية، ومن ثم إسقاطها سياسياً وعسكرياً. فقد جاء العدوان السعودي على اليمن بسبب إسقاط حركة التحرر الوطني للسلطة الموالية للاستعمار، ومن منطلق نقل الصراع الاجتماعي مع قوى الاستعمار الجديد من الملعب السياسي إلى الميدان العسكري، ليتم إعادة الشروط التي كانت تفرض الصراع داخل الملعب السياسي. فالاستعمار يتحرك لاستعادة الشروط السياسية السابقة، وتتحرك حركة التحرر الوطنية - في المقابل - مع الشروط الاجتماعية ذات التراكم التاريخي، وهذا ما يجعل الصدام حتمياً. والتقدمي هنا هو من يتحرك مع قوانين التطور التاريخي ومع حركة المجتمع بوصفة نواة وقاعدة تحتية لمحتوى السياسة الذي يفترض أن يعبر عنها.

يقول السيد عبد الملك الحوثي في أحد خطاباته: "إرادة الشعب لا تقهر، لأنها نابعة عن مسؤولية وعن معاناة وتعتمد على واقع وحقائق، إذا كان هناك من الرئاسة تعقل والتفاتة واعية وصحيحة إلى مطالب الشعب. أنا شخصياً لا يخصني هذا المطلب، موقفي فيه هو موقف شعبي وموقف مكون أنصار الله هو موقف الشعب، وبالتالي: لا يمكن أبداً أن نتنازل عن مطلب هو مطلب للشعب، الشعب لم يفوّض أحداً أن يتنازل عن مطالبه وعن استحقاقاته".

من مضمون ذلك الخطاب، نستطيع القول إن التحرك في حيز المجتمع يضمن البقاء للمكون السياسي والمجتمع نفسه، وليس التحرك في الحيز السياسي خارج سياق حركة المجتمع وتطوره. وللاستعمار مصالح تتناقض مع المجتمع وحركة تطوره،

ولهذا لا يمكن أن تفضي حركة الاستعمار العسكرية أو عبر أدواته الدولية من منظمات دولية ومجلس أمن وأمم متحدة، إلى أفق سياسي واقتصادي جديد يخدم مصلحة المجتمع، واليمن لا يمكن أن يكون استثناءً لذلك. في الصدد ذاته، يقول السيد عبد الملك الحوثي: "أن ما يسمى مجلس الأمن هو مجلس أمن الدول المستكبرة وليس مجلس أمن للمستضعفين من الشعوب". ومن الإدراك لحقيقة الواقع المتناقض مع الخارج الاستعماري والتوسعي، يشير السيد عبد الملك الحوثي إلى تجنب الرهان على أَي أَطراف خارجية، لا على الأُمم المتحدة ولا على غيرها من المنظمات الحقوقية والهيئات، كونها - بالرغم من طابعها التقدمي والحداثي - تعد ذات توجُّه رجعي يتناسب مع مصالح قوى الإمبريالية العالمية ويتصادم مع واقعنا الموضوعي ومصالح الجماهير والشعوب المسحوقة في كل مكان من هذا العالم، وما يجري في فلسطين والعراق وليبيا دليل واضح على ذلك الواقع، ويجب الاستفادة منه بوصفة خبرة مكتسبة.

إن التوجه التحرري والممانع لحركة أنصار الله واضح ومتسق مع ممارستهم الاجتماعية والعسكرية، ومنعكس في الحراك السياسي والمفاوضات الخارجية والخطاب الأيديولوجي لقيادة الحركة. والتوجه التحرري لدى أنصار الله واعٍ - أيضاً - بطبيعة الصراع؛ إذ يقول السيد عبد الملك الحوثي في السياق ذاته: "هَمُّهم واضح ومؤامرتهم مكشوفة وواضحة، تدمير هذا البلد وتركيع هذا الشعب وإهانته ثم دفعه إلى الاستسلام، والهيمنة الكاملة على أرضه ومقدراته وموقعه الجغرافي". ومن وعيه بطبيعة الصراع، يبدو السيد عبدالملك غير قابل للتشويش الأيديولوجي والانخداع بالأشكال التقدمية لمشروع الاستعمار من قبيل الديمقراطية وحقوق الإنسان التي تقدمها الإمبريالية لشعوب البلدان النامية فتنساق معها وتعجب بها كما تفعل الأحزاب السياسية في اليمن، وفي ذلك السياق يقول السيد عبد الملك: "على الأحزاب السياسية في بلدنا التي تنظر بإيجابية إلى الدول الحديثة والمدنية ولمنظمات المجتمع المدني وبإعجاب للغرب ولأمريكا؛ هذه هي الحضارة الأمريكية رأيتموها في أشلاء أطفالكم".

يتصدر أنصار الله مقاومة العدوان من منطلق وطني أصيل؛ إذ يقول السيد عبد الملك الحوثي: "نحن أَصحاب قضية أصيلة ولسنا في موقف البغي والتعدي ولا نلعب دوراً لصالح أحد، ونقاتل عن حريتنا". إن الفاعل الحقيقي في الحراك الاجتماعي اليمني الآن هو حاجته الموضوعية للتحرر بوصفها حركته الداخلية الذاتية، وليس حركة العالم من حوله، لكن اليمن - بالرغم من كل شيء - متصل بالعالم من جانبه الإمبريالي، بالتالي، فإن حركته تنعكس على العالم، ليعود العالم ويتفاعل معه ويؤثر عليه في سلسلة التأثير الجدلية بين معطيات واقعه المحلي والعالم الخارجي.

رابعاً: طبيعة علاقة اليمن وأنصار الله بمحور المقاومة

تتحدد علاقة اليمن وأنصار الله بمحور المقاومة من خلال عامل الوجود الاستعماري والصهيوني، فهذا الوجود المادي هو الذي انعكس سياسياً بين قوى هي في توجهاتها تعارض الاستعمار. بالتالي، تتفق المواقف الإيرانية مع موقف حركة أنصار الله في عدد القضايا الإقليمية والدولية، منها قضية، لكن موقف أنصار الله ذاك هو - منذ البدء - موقف اليمن وقواه الوطنية التي تعبر عن رفضها للوجود الاستعماري في الخليج واليمن، وإلى موقفها ذاك تنضم إيران وغيرها من دول محور المقاومة أو الدول المنافسة للغرب، وليس العكس.

لا شك أن قضية التحرر الوطني اليمنية تقدم الكثير من الفوائد لإيران على الصعيد السياسي والجيوسياسي، فالضغط الذي تمارسه إيران على القوى الإمبريالية من خلال سيطرتها على مضيق هرمز (الممر الرئيسي لعبور ما يقارب ٤٠٪ من كمية النفط العالمي)، يساعدها في تمرير مشروعها النووي وتجنب حدوث ضربات عسكرية أميركية عليها. وسقوط المشروع التحرري اليمني وحامله السياسي (أنصار الله) سيوفر للخليج التابع للمعسكر الإمبريالي منفذاً للبحر العربي عبر جغرافيا حضرموت، وسيطرةً على الممر البحري عبر باب المندب، ما سيفقد مضيق هرمز الكثير من الأهمية الاستراتيجية لمشروع الممانعة ضد مشروع الإمبريالية. كما أن التحرر الوطني في اليمن سيقلص من رقعة وجود القواعد الأمريكية في طريق الملاحة البحرية، ما يقلص - بشكل أكبر - الوجود العسكري للإمبريالية الأمريكية بالقرب من الحد الإيراني، ففي إطار وجود الدولة اليمنية المتحررة من

الوصاية لن يكون باب المندب منفذاً لبوارج العدو الإمبريالي، ولا طريقاً يسهل عليه عمليات النقل العسكري المُعادي.

١ - أنصار الله يشاركون محور المقاومة الموقف من قضية التحرر:

ينطلق أنصار الله من موقف وطني يمني أصيل يتمثل في رفض الوجود الاستعماري في الخليج واليمن، ويمتد هذا الموقف إلى رفض الوجود الأمريكي والنفوذ والاحتلال الصهيوني في المنطقة العربية الإسلامية ككل، ليلتقي ذلك الموقف مع الموقف الإيراني وموقف سائر دول الممانعة، وهو الموقف ذاته الذي تلتزم به قوى التحرر العالمية التي تختلف في هويتها وثقافتها عن الشعوب العربية الإسلامية.

إلا أن المشروع الإمبريالي يحاول فرض الصراع الطائفي على المنطقة العربية ليصرف النظر عن قضية الصراع العربي الإسرائيلي، وليعمل على توسيع دائرة الانقسامات الطائفية والعرقية لكي تصبح الطوائف مراكز استقطاب بين قاعدة المشروع الإمبريالي (السعودية) ومركز محور الممانعة (إيران)، فيصبح - وفقاً للمنطق الرجعي الاستعماري - كل من يقف مع القضية الفلسطينية "إيرانياً"، وكل من يعادي إيران ويمضي في خط التطبيع مع الكيان الصهيوني "عربياً أصيلاً". وهذا المنطق هو ما رفضته اليمن وقواها المقاومة.

ليست المشكلة الحقيقية في كون إيران أو السعودية مراكز استقطاب في إطار الصراعات الإقليمية في المنطقة، لكن المشكلة الحقيقية في تركيبة علاقة الاستقطاب فالعلاقة الندية تفرض مصلحة الشعوب وحقها في التصرف بثرواتها، بينما علاقة التبعية هي التي تفرض مصالح الدول الاستعمارية وشركاتها على حساب الشعوب المفقرة، يقول السيد عبد الملك الحوثي: "نحن أَصحاب قضية أصيلة ولسنا في موقف البغي والتعدي ولا نلعب دوراً لصالح أحد، ونقاتل عن حريتنا".

٢ - استقلالية أنصار الله التنظيمية والسياسية عن محور المقاومة:

المعركة مع الكيان الإسرائيلي هي حرب شاملة، ليست عسكرية فقط، بل حرب ضد الاستغلال والفساد والتبعية السياسية والاقتصادية للإمبريالية العالمية، وهذا ما يعطي المعركة التحررية في اليمن طابعاً وطنياً وأممياً في آن واحد. ومن ذلك تتبدى حقيقة كون العلاقة بين اليمن كثورة شعبية وموقف تاريخي من الاستعمار علاقة

تناسب مع محور الممانعة، وبعيداً عن مراكز الاستقطاب التي تريد أن تفرضها الإمبريالية العالمية عبر الأداة السعودية. فالتحرر الوطني يفرض واقعاً سياسياً مغايراً على الصعيدين الداخلي والخارجي؛ إذ يفرض صراعاً مع إسرائيل والإمبريالية ورفضاً لأنظمة التخلف والقوى التابعة للمعسكر الاستعماري.

من داخل الصراع الجاري في المنطقة يقاوم أنصار الله المشروع الصهيوني الذي أعلنوا موقفهم منه مُبكراً، فلطالما رافقت صرخة "الموت لأمريكا الموت لإسرائيل" شِعار "قاطعوا المنتجات الأمريكية والإسرائيلية". وفي مواجهة العدوان الراهن على اليمن، ينطلق أنصار الله من موقف وطني بإسناد ودعم شعبي كبير، متحررين من أي تبعية تنظيمية أو سياسية أو عسكرية لإيران. وتصوير أنصار الله كتنظيم تابع لإيران ليس سوى دعاية يبثها المعسكر المعادي للتحرر الوطني والإنساني. وفيما يعترف الأمين العام لحزب الله بحقيقة علاقته التنظيمية وولائه الروحي لقياده الثورة الإيرانية بكل وضوح، حيث لا خجل من مواجهة الاستعمار، فبالوضوح ذاته ينكر أنصار الله وجود علاقة كتلك.

يتخذ أنصار الله في موقفهم المقاوم مساراً مستقلاً عن الاستقطابات الإقليمية بين إيران والسعودية، رغم أنهم يتشاركون مع إيران في الموقف ذاته من المقاومة، ويؤكد هذا الموقف ما صرح به عبدالملك العجري (عضو المكتب السياسي لأنصار الله) في مقابلة تلفزيونية أجرتها معه قناة الميادين، إذ يقول: "نحن لسنا طرفاً في صراع النفوذ، نحن طرف في محور المقاومة، في محور يحمي القضية الفلسطينية"، كما يجيب – أيضاً – عن سؤال حول إمكانية القبول بدعوة سلام في اليمن لكن عبر التطبيع مع إسرائيل خصوصاً أن هناك دولاً مجاورة تتقدم باتجاه التطبيع، وذلك بقوله: "في القضية الفلسطينية ليس المهم من يدعو للسلام معها أو للحرب، المهم هو القضية الفلسطينية نفسها".

منذ بداية تحرك أنصار الله كمدافعين عن أنفسهم في الحروب الست الظالمة التي شنتها الحكومة اليمنية ما بين عامي ٢٠٠٤م و٢٠١٠م، وهم يتَّهمون بتبعيتهم لإيران، لكن خلال هذه الفترة الطويلة لم يُقدَّم أي أساس مادي لتلك العلاقة التبعية المزعومة والتي ينفيها أنصار الله كما تنفيها الجمهورية الإسلامية. وفي هذا الشأن، يقول

محمد علي الحوثي (رئيس اللجنة الثورية): "لو كنا نستورد صواريخ إيرانية كما يزعم الأمريكان لاستوردنا صواريخ الدفاع الجوي".

لقد أثبتت سنوات الكفاح الثلاثة الماضية مدى الاستقلالية التي يتمتع بها أنصار الله وهم يقودون المقاومة الوطنية في مواجهة العدوان، حيث تظهر الأسلحة المطورة محلياً على فترات متفاوتة كضرورة تحتمها عملية التراكم والتطور الداخلية اليمنية، وطوال هذه الفترة لم يتم توثيق أي سلاح إيراني في اليمن. حتى تقرير لجنة الخبراء التابعة للأمم المتحدة، لم يشر إلا إلى مجرد وجود تشابه بين الصواريخ اليمنية والصواريخ الإيرانية، دون العثور على أي دليل يثبت أن الصواريخ اليمنية إيرانية الصنع.

الخاتمة:

إن القضية التحررية اليمنية تعد وجودية بالنسبة للمجتمع والدولة والثورة في اليمن، واليمن بمعركة التحرير الوطني تفرض نفسها جزءاً من محور الممانعة ضد المشروع الصهيوني والإمبريالي بواقعية موضوعية. ففي العالم اليوم، هناك صراع يخاض بين معسكرين أحدهما وطني والآخر إمبريالي، يختلفان من حيث الأهداف والطبيعة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. واليمن كنظام ودولة ظل لعقود مضت تحت هيمنة المعسكر الغربي عبر أدواته في الخليج وممالكه، والهجمة الإمبريالية عليه اليوم ليست سوى فترة انتقالية بالنسبة إليه، حيث يتحرك نحو المعسكر المقاوم بموضوعية ظروفه وطبيعة تناقضاته. وتحرر اليمن من النفوذ الاستعماري الأمريكي والخليجي لا ريب يخدم بشكل واضح محور المقاومة، وفي مقدمته حركات المقاومة الفلسطينية اللبنانية وقوى المقاومة في العراق وسورية وإيران، فانتصار اليمن يعد سقوطاً لممكنات إقامة المشاريع الاستعمارية للقوى الإمبريالية والصهيونية في المنطقة؛ انطلاقاً من قوس التوتر إلى الشرق الأوسط الجديد ووصولاً إلى جعل إسرائيل مركز قطب الاستعمار في المنطقة.